

مانيفستو الصعود لإعادة بناء ما بعد الحرب في سورية (إ ب م ب ح)

د. وائل السمهوري*

الملخص

فيما يأتي بيان لقراءة فكرية /مهنية للأزمة السورية ورصد لمنعكساتها على مهنة العمارة لتتفاعل معها كحدث تفاعلاً خلاقاً ينتج مخرجات على شكل حلول نوعية في مواجهة الأزمة. ويأتي المانيفستو كوعاء لهذه القراءة وكقالب معتمد تاريخياً لبيان الأفكار والبرامج الجديدة في الحالات القصوى لممارسة العمارة منذ بدايات القرن العشرين. أطلق هنا على المانيفستو صفة "الصعود" بسبب كونه ردة فعل على ما أسميته "السقوط" المجازي الذي سببته "الأزمة". هنا يأتي "الصعود" كناية عن معاكسة لاتجاه السقوط. والشكل الجرافيكي المرفق، الذي يعدُّ جزءاً أساسية في بناء المانيفستو يوضِّح هذا الشيء، أو بنظرة أدق من الممكن عدُّ النص ما هو إلا توضيحاً وتعليقاً شارحاً للشكل. جذور هذا الشكل وهيكلية تأتي من التصورات الكونية في المتضمنة في المخطوطات العربية القديمة والقروسطية الأوربية التي تقسم العالم والأفلاك بشكل تراتبي هرمي من الأرض إلى السماوات، وما بعدها من عوالم حقيقية، وأسطورية، ومتخيلة.

الكلمات المفتاحية: مانيفستو، بيان، أفلاك، صعود، هبوط، الفربوس، إعادة بناء، الحدث، الأزمة.

* استاذ في قسم التصميم المعماري-كلية الهندسة المعمارية- جامعة دمشق.

المقدمة:

أصل هذا المانيفستو أو البيان هو مسودة لتقرير مشروع لم يرَ النور قدم لفرع الأمم المتحدة للإسكان Habitat في أول الأزمة السورية. تضمن التقرير برنامجاً وخطة عمل لتدريب أطقم شابة من طلاب ومهندسين معماريين حديثي التخرج، وتجهيزهم للتصدي لعملية إعادة بناء ما دمر في الحرب. لدى عدم تبني التقرير من قبل مكتب الأمم المتحدة جُزِبَ البرنامج جزئياً في كل من جامعة دمشق والجامعة الدولية للعلوم والتكنولوجيا؛ وذلك بدرجات متفاوتة من النجاح. لكن التيار - تيار ضرورة التصدي للموضوع المطروح - كان قد بدأ يمتد ويأخذ مجراه في الأوساط الأكاديمية والمهنية. في أثناء العمل مع الطلاب حدث أن أصيبت مدرسة الفردوس في حلب بقذائف و تضررت ضرراً كبيراً صدم وأحزن كثيرين ممن يعرفون قيمتها المعمارية والتاريخية والرمزية- ومن بينهم كاتب هذه السطور - فما كان ذلك إلا حافظاً على تحويل النص العلمي إلى نص أدبي وجداني رمزي، وذلك في قالب المانيفستو. كما أن المانيفستو قد ترافق بتصميم شكل هيكلي يوضح الفكرة المرجوة المذكورة في عنوانه: فكرة "الصعود" بعد "الهبوط"، والكلام جله مجازي هنا.¹

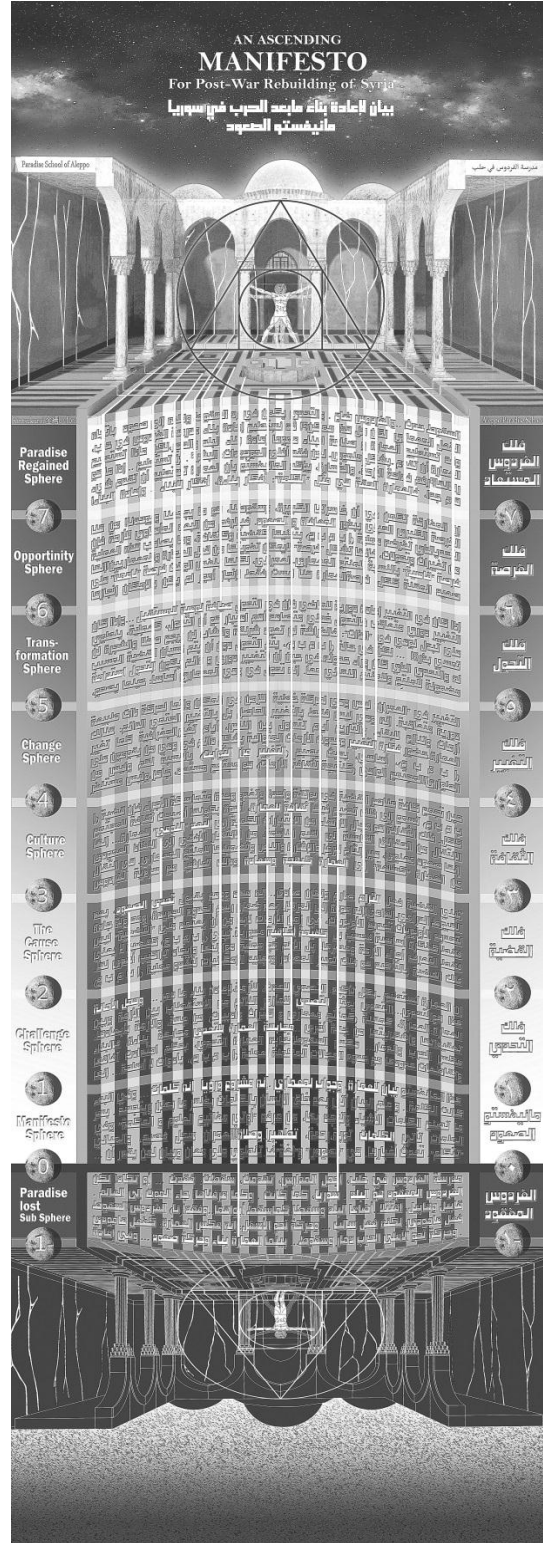
نص المانيفستو:

1- الفلك الأبدني: 2الفردوس المفقود - السقوط!

"من العصيان الأول، ومن ثمرة تلك الشجرة المحرمة، المهلكة المذاق جاء الموت إلى العالم، وجاءت كل مصائبنا، وضاعت [جنة الفردوس]...."جون ملتون (الفردوس المفقود)³

- مدرسة الفردوس في حلب، أجمل المدارس، تهدمت، سقطت، فقدت... أو تكاد!⁴

لكن الفردوس المفقود هو البلد... سورية، كما كانت... وكما عرفناها!



تطهيراً... وصلاة!

- العمران ذاكرة وسجل فصيح، والمباني "تتكلم"... تحدث أخبارها¹¹... هي "لغة" و"تصوص"... تنطوي على معانٍ وبيان لمن يقدر أن... يقرأ!
- على الرغم من الأسبقية الوجودية للكلمة، فإن المانيستو هنا هو بيان... اقتراح لطوق نجاه... إنه وعاء "مضغوط"، محمل بأسئلة، بأجوبة... هو مركبة صعود مجازي ومعراج معنوي!

إنه أشبه ببذرة تحوي سر الشجرة... والشجرة، كالعمارة، إنشاء، ينمو صاعداً... نحو الأعلى... لكنها، ووفقاً للسر الذي يكتنف البدايات كلها، تحت السطح تنمو... نحو الأسفل بدءاً، تثبت جذرها، أساسها، ثم السطح تخزق صعوداً... كمثل العمارة،... وتبقى في الزمان!

اختراق السطح صعوداً، في البناء، وإعادة البناء، هو البداية المرئية "لتدبير"¹² غير مرئي في الباطن، إنه حدث تحت السطح، تحضيراً لاختراق وجودي وظهور وتجسد مادي... لكن، وعلى الرغم من كونه باطن غير مرئي، فإنه يشكل فلك التحدي الأكبر للعمارة من أجل (إ ب م ب ح)!

1- الفلك الأول: فلك التحدي

- إن العمارة تستطيع - بكل تأكيد - التصدي للحدث، للأزمة، لإعادة بناء ما دمر... وحمل الأمانة¹³، هذا هو التحدي...!
- التحدي يمثل التصدي للمأزق الناتج عن الاستقطاب بين الأزمة وبين العمارة:

العمارة، بوصفها مهنة (منتجاً معمارياً وترائياً وأدبيات) من جهة، والأزمة بأبعادها، تعقيداتها وإشكاليتها من جهة أخرى...

- إن الأزمة كشفت قصور الأدوات الاعتيادية الحالية للمهنة، في مواجهة حدث غير اعتيادي، حدث استثنائي

جاء الموت إلى العالم... قابيل وهابيل، اقتتلا... أضاعا البلد

- وسقطا، كما سقط أبواهما... وفقدنا (نا) الفردوس!
- في فقدان المدرسة فقدنا الفردوس الأصغر... وفي دمار البلد فقدنا الفردوس الأكبر⁵... أو نكاد!
- فقدان الفردوسيين هو "الحدث"⁶، هو الأزمة، هو المحنة... والحدث استقطاب في الزمان والمكان، وآخر محطة في عقوبة السقوط!

- السقوط فعل عامودي، لكنه فعل سالب... وحركة نحو الأسفل، إنه عكس العمارة، كفعل عامودي... وحركة نحو الأعلى... والحرب دمار وسقوط... أمّا العمارة فبناء وحركة صعود... وفي إعادة البناء حركة... أصعب!
- إعادة البناء تحدٍ للعمارة، لن يتم إلا إذا غدا قضية لها وتجذر كثقافة للبناء، بآليات متضمنة لتغيير وتحول في العمران. إن عملية إعادة بناء ما بعد الحرب تمثل فرصة للعمارة، لإعادة بناء نفسها وإعادة-بناء البلد... في سعي نحو استرجاع... الفردوس المفقود.

0- الفلك صفر: مانيستو صاعد:

لإعادة بناء ما بعد الحرب في سورية "والآن يا أخي أستودعك الرب، وكلمته التي فيها النعمة، تلك التي بقدرتها تبني صعوداً نحو الأعلى ولنورثك فيمن أورثنا من المطهرين" 20:32 الكتاب المقدس

- هذا المانيستو بيان للعمارة... رسالة من معماري... إنه مشروع ورؤية!

إنه كلمات... وفي البدء كانت الكلمة⁷... وعلم البيان أتى بعد خلق الإنسان⁸.

بالكلمات يظهر ما بطن ويتجسد... بسر ما، تصنع الكلمات الأشياء وتوجد بها، من عرفه "أوتي مفاتيح العلوم والحكمة"⁹... وفي الملمات تأتي الكلمات توبة¹⁰، رحمة،

• تحديد الأولويات، في زمن الأزمات لا بد من أن يعتمد على "التضحية" ليس فقط كفكرة أساسية فحسب، بل كقيمة أخلاقية محورية.¹⁵

• إذا كان التحدي اقتراباً للحدود وحركة طرد-مركزية centrifugal، فإن تبني (إ ب م ب ح) بوصفها قضية للعمارة يعني فعلاً معاكساً، جذباً-مركزياً centripetal، لكنه فعل موازن للأول، ففيه تكريس للمركز وشعاع منبثق منه نحو مسار واضح في خارطة طريق.

• تبني (إ ب م ب ح) كقضية للعمارة هو زحزحة لثوابتها القائمة كمهنة، وإعادة ترتيب لسلم أولوياتها المعتاد. هذا لا يحتم فقط تقييماً حرجاً للتعامل مع الموارد ولكن موازنة حرجة وقراءة نقدية لمعطيات الأزمة كلها من حيث علاقتها بالعمارة. إنه تصنيف حرج ونقدي¹⁶، متأنٍ وبعيد النظر، سريع (لكن غير متسرع) للموارد المالية والبشرية ومقتضيات الزمن والتاريخ والبيئة والثقافة... تبني (إ ب م ب ح) كقضية هو عملية موازنة في أساسها!

تبني (إ ب م ب ح) كقضية لا يعني فقط تعرّف أجزاء الأزمة وحصرها، بل الأهم هو عملية موازنتها وإيجاد تراكيب أجدى لها. فلك القضية هو بالتأكيد فلك تمييز المصادر وتجنيد الإمكانيات لتغدو عملية (إ ب م ب ح) ثقافة للعمارة:

3- الفلك الثالث. فلك الثقافة¹⁷:

حين تجتمع عناصر القضية كلها في بوتقة واحدة وتغدو وحدة متماسكة الأجزاء فإن قضية (إ ب م ب ح) تسمو إلى فلك تصبح فيه ثقافة للعمارة، أسوة بكونها أصبحت ثقافة للمجتمع ككل.

• فلك الثقافة هو مجال الارتقاء من الاعتبارات الكمية إلى البعد "النوعي" للعمارة... إنها الانتقال من الحقائق القاسية إلى القيم الناعمة¹⁸، من الانتشار الأفقي إلى النفاذ

بامتياز! باتت المهنة محبوسة في حدودها الحالية، وغدا التحدي يكمن في اختراق لهذه الحدود، ومن ثم القيام بتحسينها وإعادة تعريفها...

إن مواجهة وضع استثنائي يحتاج أسلحة/أدوات استثنائية!

• مجابهة العمارة للتحدي مجابهة بناء، فالبناء عكس الحرب والدمار... عكس السقوط!

تجابه العمارة التحدي، بحكم خصائصها وامتداد آفاقها وتقاطعات حدودها مع حدود المجالات المكملية لعملية (إ ب م ب ح)، بأدوات لا أسلحة... إنها المجابهة القصوى للمهنة!

• وتجاهه العمارة، بحكم موقعها (المركزي والمحيطي) بين هذه المجالات، تحدي (إ ب م ب ح) مكانياً وزمانياً. مكانياً: هي المركز والمحيط: وذلك بحكم دورها التوسطي mediation. هي المركز: أي نقطة الانطلاق والمرجعية المركزية للاختصاصات جميعها؛ والمحيط، بحكم قدرتها على الإحاطة بهذه الاختصاصات وجمعها.

زمانياً: بحكم انخراط العمارة على كامل امتداد مدة حياة أي مشروع: من بدايته، كبذرة وفكرة، وحتى بنائه وتسليمه... ذلك كله وفقاً لمقتضيات الحالة القصوى وروح الوقت¹⁴ zeitgeist الاستثنائية السائدة للأزمة.

• في الحالات القصوى تتغير جغرافية الحدود وتاريخ توازنات القوى؛ ممّا يحتم كذلك تغيير الخارطة المهنية السائدة. ولن يتم ذلك إلا إذا تم تبني (إ ب م ب ح) كقضية للعمارة:

2- الفلك الثاني. فلك القضية:

تبني القضية فعل التزام صارم وتقان صادق... إنه عهد ووعده بقبول تحدي الصعود... بعد الهبوط الدرامي-الدامي!

• إنه عودة إلى المركز، بعد أن تم ضمان رسم الحدود الجديدة، ومحاولة جادة لتحديد الأولويات.

العمودي¹⁹...

إنها صعود معنوي، عبر إنتاج للرمز والإشارة والنص وتضمينها للمنتج المعماري. هي انتقال من العمارة "كسلعة" commodity (عند فتروفبوس)²⁰ إلى العمارة كبهجة delight وسعادة، وذلك تماشياً مع سردية "الفردوس المستعاد".²¹

• إذا كان في التحدي تبيان **الحدود** واعتماد **الأدوات** ... وإذا كان في تبني ذلك **كقضية** كشف للمركز والمنطلق وخطة طريق، فإن في **ثقافة** (إ ب م ب ح) ترسيخاً للقضية في الوعي (واللاوعي) والفعل نتيجة لهذا **التحدي**.

• العمارة **فعل ثقافي** بالأصل، و**ثقافة** (إ ب م ب ح) "كتقافة الاستدامة" و"ثقافة الأزمات" و"ثقافة المقاومة"، يجب أن تطبع عمارتها وتعكسها.

• و**الثقافة** من الحرارة²²... والأرض "تحرث" للزراعة والبناء معاً... الأجداد كانوا يبنون كما كانوا يحراثون ويزرعون.²³ في فلك ثقافة (إ ب م ب ح) لم يعد سطح الأرض حداً لأرض بور، أرض الدمار بعد "السقوط"، بل أصبح حقلًا محروثاً جاهزاً للبدار والإعمار... والصعود!

• في فلك ثقافة (إ ب م ب ح) لا تنتج مجرد تراكمات كمية typomorphic (لأنماط البناء وتراكيبه)، ولكن تجسدت **نوعية** لارتباط (وتربيط) للعمارة بسياقها الثقافي - انطلاقاً من الالتزام بالقضية بوصفها "مركزاً جديداً"...

لكن الانكفاء نحو **المركز الجديد** لا يعني بأي حال الانعزال الثقافي، بل انقيض، إنه انخراط جديد مع العالم (من خلال الثقافة الجديدة). إن النموذج الإرشادي²⁴ paradigm السائد في المهنة قد تغير الآن، وغدت عملية (إ ب م ب ح) فعلاً ووعياً **بالتغيير** كفلك أعلى: كتقافة، كحقيقة فكرية وكآلية تنفيذية.

4- الفلك الرابع. فلك التغيير:

التغيير في العمران²⁵ ليس مجرد وعي لحركة خطية liner للزمان في المكان وإنما لحركة ذات طبيعة دورية cyclical متعاقبة. إنه وعي ليس فقط بالتغيير الحاصل بل بالتغيير الحتمي الدائم: هنالك أزمات وتنازع للبقاء، والتاريخ أيام تُتداول بين الناس²⁶، أيام تغير الجغرافية كما تغير العمارة.

• حضور فكرة **التغيير** وحدث الأزمات المتوالية بشكل دائم في وعي من يقومون على (إ ب م ب ح)، أساسي، بحيث يصبح (**التغيير** من الثابت) بالنسبة إليهم وليس من الطوارئ!

• المجتمع الواعي (نتيجة ثقافة الأزمات) هو مجتمع مستعد، جاهز، وليس مستغفراً ومتشنجاً بالضرورة. إنه مجتمع يتقبل فكرة الأزمات، ولديه وعي (أو لاوعي جماعي) بأن **دوام الحال من المحال**، وأن هنالك أحداثاً تتطلب جهوزية عبر ميكانيزمات متضمنة في المهنة، في كوداتها ونظم ممارستها.²⁷

• "الإعادة" في (إعادة ب م ب ح)²⁸ فعل زمني ينتمي إلى عالم آليات التغيير (رجوع وعودة)، هو وعي لدورة تغير العمران بالمعنى الشامل، كما عند ابن خلدون (ولادة، استقرار، سقوط).

لكن هذه "الإعادة" تنطوي على دلالة العودة (إلى ما قبل "السقوط")... وهنا المفارقة paradox والتناقض الظاهري! فخلال ما أسميناه مرحلة السقوط (الأزمة) تغير "نص" المشروع the brief 29 واحتياجات "الزبون" ... تغير الزبون!!... ولم يعد النص الأصلي يفي بالغرض...

غدت فكرة "الإعادة" لا معنى لها redundant!!

لذا يطرح المانيستو فكرة **التحول** في العمران، كظرف زمني أصح وفلك أرحب... إنه حركة process خطية، وحيدة الاتجاه-

6- الفلك السادس. فلك الفرصة:

إن المفارقة تكمن في أن خسارتنا الكبيرة، وسقوطنا، هو نفسه ما سيجمعنا ويوحدنا! من هنا الفرصة الكبرى الحبلية ببذور المعافاة والصعود.

فعلى الرغم من البعد المأساوي للأزمة فإن **التحدي** الذي تفرضه عملية (إ ب م ب ح)، بتبنيها **كقضية** و**كثقافة**، وما يصاحب هذه العملية من **تغيرات** و**تحولات**، تشكل **فرصة** لا يمكن تفويتها من قبل العمارة والمعماريين!

- إنها فرصة "قاسية" بالنسبة إلى المنتج المعماري-العمراني، لكنها في الوقت نفسه فرصة "ناعمة" على صعيد المهنة ككل. فرصة العمارة هنا ليست فقط لإنتاج أمور لم يكن بالإمكان إنجازها بالوضع "الاعتيادي"، بل أيضاً لتطوير نفسها كمجال وكمهنة، وذلك في قدرتها على التصدي "الدائم" للأحداث والأزمات وفرصة لتختبر نفسها، ولتخترق حدودها، وتمدد آفاقها! إن مواجهة /الحدث بما اقتضته من عمليات سبر للإمكانيات المتاحة، وتقنيك شبكات العلاقات القديمة القائمة، تعيد تركيب الواقع بشكل جديد يؤدي إلى انبثاق قوى جديدة، وفتح آفاق أوسع للفكر، ومسالك أرحب للممارسة... هنا الفرصة!

هذا على صعيد المهنة، أما على صعيد المنتج فها هنا يواجهنا تناقض ظاهري في فلك **الفرصة** ومفارقة لافتة بالنسبة إلى عملية (إ ب م ب ح)

- فرصة ... لتصحيح، وإعادة صياغة، أشياء مستعصية، أشياء كنا لا نملك الجرأة لتغييرها:

بناء، مبانٍ، أو مناطق بالكامل، تعمل، لكنها مترهلة، تعمل ببطء وكفاءة متدنية ...

هنا عملية (إ ب م ب ح) كفرصة للعمارة تغدو **هدمًا**... من أجل **(إعادة) البناء!**

صاعدة، في مقابل حركة **التغيير** الدورية الراجعة... هي رد نوعي على الحركة الهابطة للسقوط الكبير!

5- الفلك الخامس. فلك التحول:

إذا كان في التغيير إعادة دورية للماضي فإن في التحول صياغة نوعية للمستقبل... وإذا كان التغيير دورياً متعاقباً فالتحول خطي متصاعد.

- أهم اعتبار هو أن التحول، كعملية، ينضوي على تبدل نوعي في "الذات": فالفراشة لن تعود شرنقة والشاب لن يرجع طفلاً والشجرة لن تسمي بذرة أبداً! ... لكن في حالة (إ ب م ب ح)، يتم التحول دون أن يتم نسيان **القضية** المسببة له و **التحدي** الذي كان وراء حدوثه.

- في حين أن التغيير دوري ودائم، يكون التحول استدامة مضمونة للمنتج وللمنتج النهائي معاً. إنه تحول في وعي المعماري أساساً: حينما يصحو، وحينما يرى الإشكاليات الجديدة التي لم تكن مرئية له من قبل ويتصرف على هذا الأساس.

- والتحول أقرب للفعل المعماري، بكونه إبداعاً، ابتكاراً وتوليداً لبنى جديدة. بذا فهو عكس التغيير، الذي يتبع قانوناً شبه حتمي، **فالتغيير** مسيرة شبه طبيعية للأشياء في حين أن **التحول**... خرق للعادة!

- في إعادة تغيير **أفقي** سطحي، معتاد ومتوقع لممارسة المهنة، في حين التحولات **تغيرات شاقولية** عميقة،³⁰ تتغير معها المهنة برمتها! لذلك يكمن أس التحول في كونه عملية process وليس منتجاً product فقط، وهو يجري على الذات والموضوع معاً: على المعماري ... وعلى العمارة!

لإعادة بناء ما بعد الحرب لا يمكن للعمارة أن تعود لما كنت عليه من قبل... قبل "السقوط"... لذا فإن (إ ب م ب ح) تشكل **فرصة** للعمارة:

للأجيال القادمة من قِبل الآباء الحاليين (أجيال الأزمة) الذين
عانوا وضحو ودفعوا الثمن...!

• **المناعة المقترحة كتعويض** تتمثل معمارياً في (استدامة
الذاكرة)³⁴ في المنتج المعماري... فالعمارة تحيبتها³⁵ "فكرة"،
والذاكرة فكرة حية وخاطرة مستدامة، إنها جهاز بث نبضه
حاضر بشكل دائم لكي... نتذكر!

إنها أشبه بتضميد للجراح وترك ندبتها شاهداً... إنها ترميم
الدمار دون إخفاء تصدعاته...

إنها **رأب الصدع** بالذهب (Kintsukuri)³⁶ كما عند اليابانيين،
وتحويل الخسيس إلى الذهب كما في الكيمياء عند
العرب³⁷، لتبقى الذكرى حاضرة ويُدفع ثمنها... ذهباً!
في صلب فكرة سرديّة "الفردوس" تكمن فكرة السعادة.
فالسعادة مفقودة والإنسان في بحث دائم عن وسائل
استعادتها أو تحصيلها، أكان ذلك عن طريق "وسيلة" العمارة
"عمارة السعادة" عند آلان ديبوتون³⁸ أو "كيمياء السعادة"
للغزالي³⁹، كلاهما يراهن على عملية تحول غيبية معينة،
هي إعادة بناء يجريها الإنسان على المحيط العمراني، على
العالم، وعلى... نفسه!

• ولطالما كانت العمارة عبر تاريخها، ذات طبيعة طقسية
تطهيرية، لا تخلو من بعد غيبي! ... والرهان المعماري
الحقيقي (تجاوزاً للثلاثية الفتروية) يكمن في نظرة شمولية،
كلية وعميقة، لعمارة في خدمة الإنسان بأبعاده كلّها: المادية
والنفسية-الروحية... بكونها **بيئة ووعاء للتعويض**، نحو
استعادة الفردوس ونحو تحول البشر، عبر الحجر، إلى -
ذهب!⁴⁰

إن العمارة الجديدة ل (إ ب م ب ح) ليست مجرد وعاء سلبي
منفعل للتعويض المقترح، بل مصفوفة وبيئة متكاملة، فاعلة،
ومحفزة⁴¹ لتحول كلاً من العمارة والمعماري إلى... ذهب!

الحدث والأزمة وضعا أمامنا فرصة لخلخلة الثوابت من أجل
إعادة بناء العمارة لذاتها، فهناك إعادة بناء للعمارة كما أن هناك
إعادة بناء لما دمر في الحرب ... هنا الفرصة الكبيرة!
الحدث الاستثنائي يحتاج إلى استجابة استثنائية ... والضياع
الكبير يحتاج إلى استجابة استثنائية نحو فرصة استثنائية لاستعادة
الفردوس!

7- الفلك السابع: فلك الفردوس المستعاد³¹:

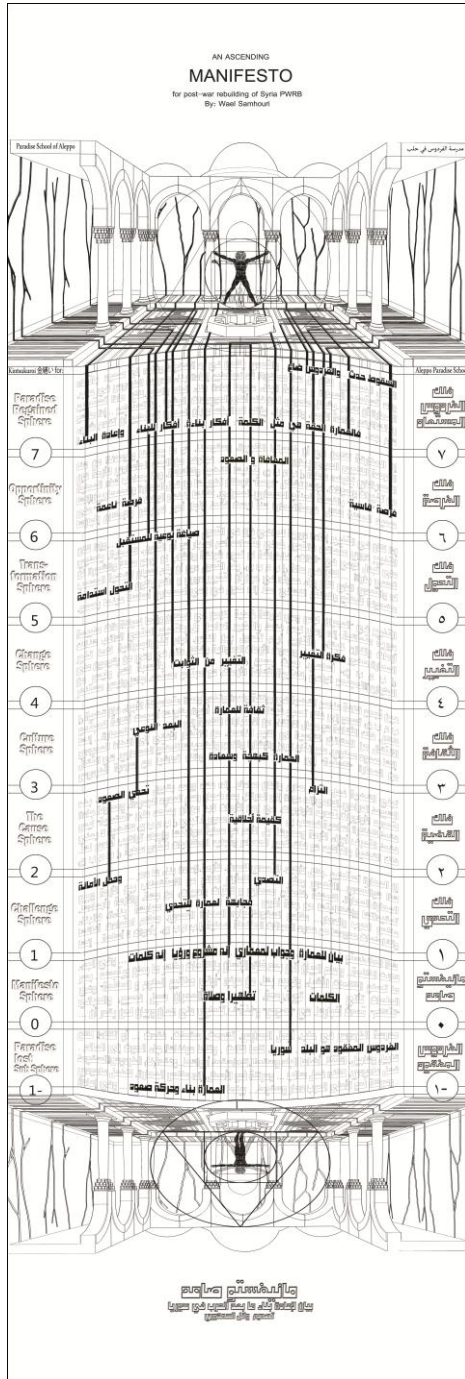
السقوط حدث... والفردوس ضاع... والتحدي يكمن في رد
السقوط وقلبه، إلى صعود، باتجاه الفعل المعماري... لكن هل
يكون هذا ممكناً؟!

قد نستطيع إعادة بناء مدرسة الفردوس في حلب، وقد نستطيع
العمارة وصناعة البناء عموماً إعادة بناء البلد والحجر، لكن ماذا
تستطيع العمارة أن تقدم - بشكل ملموس- لمن فقد أعلى
الموجودات: البشر؟... لن نستطيع... إذا ما رهانها؟
مع فداحة الأزمة، والخسارة، يؤكد المانيفستو أن العمارة تستطيع
أن تقدم شيئاً مهماً جداً، فالعمارة الحقة هي مثل "الكلمة": أفكار
بناء، أفكار للبناء -إعادة البناء!

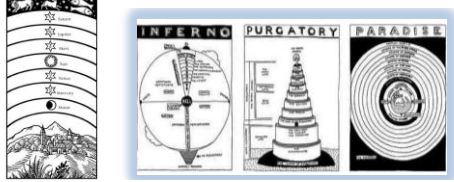
الفكرة المقترحة هنا هي بشكل رئيس فكرة الالتئام (الشفاء
والمعافاة) healing، وتتلخص هذه الفكرة وتتجسد في فكرتين
تابعتين: فكرة "التعويض" compensation وفكرة "تحول الذات"
self-transformation. بصيغة أخرى: إعادة بناء الذات
والموضوع³²: الذات المُعمّرة والبلد المُعمّرة. إعادة بناء وترميم
النفس أو الذات الجماعية، المصفوفة³³ matrix التي تشمل كلاً
من العمارة-المعمر (المعماري) والمعمر له (لهم).

• التعويض هنا، كقيمة معنوية وكفكرة متسامية. إنها التعويض
المعنوي (المتجسد) في صبيغة-صياغة-إعادة صياغة
المنتج المعماري-العمراني الجديد... ولن يكون هناك
تعويض أكبر من "المناعة" الافتراضية المكتسبة التي تنقل

لا شك بأن معنى عبارة تشرشل الشهيرة: "نحن نبني مبانينا ومن ثم هي تبنيها"⁴² تأخذ معنىً إضافياً في حالتنا: هل نستطيع تحويلها إلى: **"نحن نعيد بناء مبانينا وهي بدورها ... تعيد بناؤنا؟"** لقد كان هذا العالم كله أمامهم حيث اختاروا مكان استراحتهم وطريق رشدهم، يداً بيد ساروا بخطا بطيئة وعبر جنة الفردوس إتخذوا طريقهم [الذهبي] ميلتون (الفردوس المستعاد)⁴³



التصعيد). الشكل انعكاس واستمرار للأشكال التاريخية لتوصيف الكون كما بدأ في مخطوطات القرون الوسطى المتأثرة برحلة الإسراء والمرج وما تلاها من أعمال أدبية وغير أدبية بطيف واسع، من رسالة الغفران للمعري إلى الكوميديا الإلهية لدانتي.



3- في أعلى اللوحة لقطة لمدرسة الفردوس في فلك السماء السابعة (كناية عن الفردوس المستعاد)، وقد رمت تصدعاتها بخيوط وخطوط من التطيب بالذهب (على الطريقة اليابانية Kintsukuroi) وكإشارة مجازية للتحويل الكيميائي للمعادن من الخسيس إلى الذهب؛ وذلك عبر حجر الفلاسفة، وهي عملية تتحول في نفس الإنسان إلى "ذهب" من الناحية المجازية فضلاً عن العمل الكيميائي نفسه. لذلك تجد رمز حجر الفلاسفة في مركز اللوحة ويدخله الإنسان بهيئة الشخص الفتر وفي الذي رسمه ليوناردو دافينشي: كناية عن تأكيد التحول المشترك للمعمارية والمعماري معاً... إلى ذهب!



رمز حجر الفلاسفة

⁴ رقم الفلك هنا (ناقص واحد) -1

⁵ ميلتون، جون: الفردوس المفقود، ترجمة حنا عبود منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة - دمشق 2011

⁶ جامع ومدرسة الفردوس هو جامع تاريخي يقع في حلب، قرب باب الحدائق. اكتمل بناؤه عام 633 هجري /1235م. ومن اسمه، الفردوس، اِسْتَقْبَتِ التدايعيات في النص على موضوع الفردوس، الفردوس المفقود والفردوس المستعاد، وما يعنيه الفردوس بالنسبة إلى الإنسان الأول و مصيره، ومن ثم توبته.

¹ المانيفستو بحسب معجم أوكسفورد هو: "بيان علني لسياسة أو أهداف لفنان أو حزب سياسي"

A public declaration of a policy and aims of a political party or artist."

والمانيفيسيو الحالي بيان لقراءة فكرية/مهنية للأزمة، ورصد لمنعكساتها على مهنة العمارة لتتفاعل معها كحدث تفاعلاً خلاقاً ينتج مخرجات على شكل حلول نوعية في مواجهة الأزمة. ويأتي المانيفستو كوعاء لهذه القراءة وكقالب معتمد تاريخياً في الحالات القصوى لممارسة العمارة. المرجع الأساسي لموضوع المانيفستو وضعه أورليش كونراد بعنوان "برامج ومانيفستو (بالجمع) لعمارة القرن العشرين" إذ جمع في هذا الكتاب أهم هذه البرامج و المانيفستو(بالجمع) وحررها ووضعها في سياق متصل ومتسق. انظر:

Conrad, Ulrich: **Programs and Manifestos on 20th-Century Architecture**. Translated by Michael Bullock, The MIT Press, Cambridge, Massachusetts, 1997

² أطلق هنا على المانيفستو صفة "الصعود" بسبب كونه ردة فعل على ما أسميته "السقوط" المجازي الذي سببته "الأزمة". السقوط، أو الهبوط، كما هبط آدم وجواء من الجنة نتيجة لذنبهما وعصيانهما. هنا يأتي "الصعود" في المانيفستو كناية عن معاكسة لاتجاه السقوط. والشكل الجرافيكي الصاعد ليوستر المانيفستو يوضح هذا الشيء.

³ الشكل التوضيحي (أو اليوستر) المرفق بيلور هيكل الأفكار الواردة في المانيفستو، وهي مؤلفة بشكل أساسي من العناصر التركيبية الآتية:

1- في أسفل اللوحة لقطة لمدرسة الفردوس مقلوبة ومتصدعة بشقوق في الجدران تعبيراً عن "السقوط" المجازي المذكور في النص (كناية عن الفردوس المفقود)، وهي مرسومة باللون الأسود negative للون الأصلي للصورة الموجودة في الأعلى.

2- تسعة نطاقات أو "أفلاك" أعطيت أرقاماً تبتدأ من الأسفل إلى الأعلى تكريساً لعملية "الصعود" المجازية بعد "السقوط". بداية الأفلاك وهو الفلك الأدنى يعطى الرقم ناقصاً واحد (-1) و هو الفلك المغمور تحت سطح الأرض، يليه الفلك (صفر) وهو فلك المانيفستو كبذرة وبرنامج "خام" غير متجسد بعد لأفكار الصعود. ومن ثم تتتالي الأفلاك السبعة محملة بالأفكار الخاصة في كل فلك وبالترتيب (أو

¹⁵ إشارة إلى الآية الكريمة (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) الأحزاب / 72

¹⁶ Zeitgeist الروح المحددة مدة تاريخية معينة التي تظهر بمكوناتها ومفرداتها وعقائده... كروح الحداثة في عمل فني مثلاً.
The defining spirit or mood of a particular period of history as shown by the ideas and beliefs of the time.
(Oxford Dictionary)

¹⁷ التضحية بالمعنى الشامل للكلمة ودلالاتها، لكن تجدر الإشارة بشكل خاص، ومن باب أولى، إلى تضحية المعماري بالـ (الأنا ego).

¹⁸ ترجمة لكلمة critical التي تحمل معاني "النقدي" و"الحرج" في الوقت نفسه، وقد أثرت استعمال المعنيين معاً بالعربية.

¹⁹ من الكلمات المنتهكة

²⁰ ترجمتي الشخصية للكلمات: soft values and hard facts.

²¹ بالمعنى المجازي طبعاً.

²² التركيب الأمثل الشهير لفتروفوس: (المتانة، والسلعة، والبهجة) أو (الإشياء والوظيفة والجمال)، كما يحلو لبعض المترجمين استخدامها في اللغة العربية، *The Ultimate synthesis of: Firmness, commodity and delight.*

²³ المرجع الأساسي في اللاتينية والمرجع الإنجليزي هو *The Ten Books of Architecture*

²⁴ كما أشار الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر في مقاله الشهيرة Martin Heidegger, "Building Dwelling Thinking", as it appeared in *Poetry, Language, Thought* trans. Alfred Hofstadter (New York: Harper and Row, 1971).

²⁵ كما أشار المعماري الأردني عكرمة غرابية في صفحته الخاصة في الإنترنت.

²⁶ ما يعرف بتغيير "النموذج الإرشادي" Paradigm shift الذي اقترحه توماس كون في كتابه بنية الثورات العلمية. انظر توماس كون، بنية الثورات العلمية ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة رقم 168،

⁷ هنا إشارة إلى النص الإنجليزي الأصلي للمانيفستو إذ استعملت الكلمات:

macrocosm and microcosm and major-paradise and minor-paradise

للإشارة والاستعارة التعبيرية المجازية لكل من العالم الأكبر والعالم الأصغر من جهة، والفردوسين الأكبر والأصغر من جهة أخرى.

⁸ الأزمة في سورية شكلت "حدثاً" درامياً أفرز استقطاباً في الزمان والمكان وأحدث انقطاعاً، بل خرقاً للتجانس، في السير "الطبيعي" للأحداث. والحدث "تغيير" لعلاقة الإنسان بالوجود، لذا سيكون هذا الحدث "مرجعاً" لمآساتي بعده كله. وقد أشارت الدراسات الفلسفية إلى وجود علاقة وطيدة بين الحدث والفكر، كما نجد العلاقة بين الفكر والوجود. إذاً فكرنا قراءة للحدث، والمانيفستو وعاء لهذا الفكر، كما أن العمارة (كعمارة) يمكن أن تقرأ وتُختبر كـ"وسيلة" ووعاء للأفكار.

لتعريف فلسفي لما يعنيه مفهوم "الحدث" و علاقته بالفكر عموماً انظر: علي حرب: *الفكر والحدث (حوارات ومحاور)*. دار الكنوز الأدبية، بيروت، لبنان، 1997

يصف علي حرب الحدث بأنه "الفكر هو علاقة بالحقيقة بقدر ما تفهم الحقيقة بوصفها "أثراً" الحدث ومفعول من مفاعيله، سواء تعلق الأمر بحدث علمي أو تقني، مجتمعي أو سياسي، فني أو عشقي... ومعنى ذلك أن الفكر هو قراءة للحدث تسهم في صوغه بقدر ما تعترف بما تولد عنه من الحقائق والوقائع. والفكر الذي ينفى الحدث يتحول إلى مجرد وهم، أو إلى مجرد معتقد جامد... ص 8

⁹ كما في بداية الكتاب المقدس.

¹⁰ إشارة إلى الآية القرآنية من بداية سورة الرحمن "خلق الإنسان علمه البيان".

¹¹ عبارة تتسب إلى محي الدين بن عربي.

¹² فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۗ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37البقرة)

¹³ كما الأرض "تحدث أخبارها" في القرآن (سورة الزلزلة).

¹⁴ التدبير" عبارة "تقنية" ومجازية معاً، مستعملة في علوم الحكمة القديمة عند العرب (الخيمياء)، خاصة تدبير "الترياق" وهو المزيج الكيميائي المضاد للسموم جميعها (وأكثر...).



kintsukuroi

(n.) (v.phr.) "to repair with gold", the art of repairing pottery with gold or silver lacquer and understanding that the piece is more beautiful for having been broken.

³⁹ الكيمياء أو الخيمياء كما تسمى أحياناً. ويعرف ابن خلدون الكيمياء بأنها (علم ينظر في المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة)، ويشرح العمل الذي يوصل إلى ذلك جابر بن حيان -الكافي من تاريخ العلوم عند العرب - ص 61. وتلجأ الخيمياء إلى الرؤية الوجدانية في تحليل الظواهر، وتستخدم فكرة الخوارق في التفسير، وترتبط بالسحر، وبما يسمى بعلم الصنعة، وتسعى إلى تحقيق هدفين هما:
أ - تحويل المعادن الخسيسة كالحديد والنحاس والرصاص إلى معادن شريفة كالذهب والفضة عن طريق التوصل إلى حجر الفلاسفة.
ب - تحضير أكسير الحياة، وهو دواء يراد منه علاج كل ما يصيب الإنسان من آفات وأمراض، ويعمل على إطالة الحياة والخلود. المصدر السابق نفسه ص 61

⁴⁰ إشارة إلى كتاب آلان دي بوتون الشهير عمارة السعادة

The Architecture of Happiness by Alain de Botton,
Pantheon press, 2006

⁴¹ كيمياء السعادة، تأليف أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: 505هـ) (كتاب اسمه كيميائي سعادات في مجلدين كبار وهو ترجمة تقريباً لكتابه الإحياء مع تغيير بسيط) دار قنينة، 2000 م

الكوريت 1992.

²⁷ العمران والتغيير هنا بالمعنى الخلدوني كما جاء في مقدمته، وفي كثير من الدراسات الشارحة للمقدمة.

²⁸ إشارة إلى الآية القرآنية (سورة آل عمران: 139-140).

²⁹ مثل كود الزلازل في اليابان وكاليفورنيا والتسونامي في جنوب آسيا وغيرها.

³⁰ كما في التسمية الإنجليزية re-construction (re)

³¹ "نص" المشروع the brief كما أقرت ترجمته، وهو الورقة أو الطلب الذي يعطيه "الزبون" (الشخصي أو الاعتباري) للمعماري مبيناً فيه جدول احتياجاته بشكل خطي (أو لنقل رسمياً) و يعدُّ في كثير من البلدان نصاً تعاقدياً يحكم العلاقة بين المعماري والزبون.

³² Transformation in the *deep structure* of an entity

³³ عنوان الديوان الشعري الملحق للفروديس المفقود الذي ألفه جون ملتون كتكملة في آخر حياته. الديوان غير مترجم للعربية بحسب علمي.

³⁴ Rebuilding of subject and object

³⁵ المصفوفة Matrix بمعنى البيئة الحاضنة (وليس الجدول الرياضي كما تستخدم الكلمة غالباً بالعربية)

³⁶ في إشارة بعيدة إلى لوحة سلفادور دالي "استدامة الذاكرة"

Salvador Dali – *The Persistence of Memory*

³⁷ بمعنى animation هنا

³⁸ Kintsukuroi منذ قرون يوجد فن في اليابان يسمى (كنتسوجي) ، وفيه يجري إصلاح الأواني والأطباق المكسورة بالذهب. يعبر هذا الفن بصورة رمزية عن أن الصعاب والانكسارات في حياة الإنسان هي التي تبرز الذهب أو الجمال والقوة بداخله. المصدر

<http://ghrebaa.com/post/110074368552/kintsugi>

⁴² من الملفت والمناسب هنا بالنسبة إلى موضوعنا ما كتب على الطنف أعلى بوابة مدرسة الفردوس في حلب الآية من سورة الزخرف التي تذكر الذهب والجنة: "يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهُ بِهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (71) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ " (72)

⁴³ بالمعنى الخيميائي للكلمة.

⁴⁴ "We shape our buildings, and afterwards our buildings shape us." Winston Churchill

⁴⁵ John Milton, Paradise Lost and Paradise Regained (Collins Classics), 1988